

دراسة وفية

حديث الشتاء

بقلم الدكتور محمد سعيد

ديوان
محمد أبو سنه

- ١ -

هذا هو الديوان الثاني للشاعر « محمد أبو سنه » بعد ديوانه الاول « فلبى وغزالة الثوب الأزرق » وبين صدور الديوانين مدى زمن قصير، ولهذا دلالة بالنسبة للشاعر وشعره ، إذ يواصل الشاعر دوره الواعد ليحتل مكانه بين شعراء جيله الشباب وليؤكد معهم - وفي طبيعتهم - حركة الشعر الجديد بمد أن زاد طريقة شعراء الجيل الذي سبقه، فتحملوا مسئولية الدهشة والانزعاج والمعارضة التي تلقى بها المثقفون العرب والشعراء التقليديون - بصفة خاصة - الحركة الشعرية الجديدة التي ما زالت في حاجة حقيقية للإنتاج الاصيل الخصب كديوان « حديث الشتاء » والى الامكانيات المنفتحة الجديدة التي تناهت وتنطق وتواصل الإبداع مثل : « محمد أبو سنه » .

ولست أنوي في هذه الدراسة أن أقدم موازنة بين مرحلتين أوبين ديوانين للشاعر فإن ذلك في حاجة الى جهد مستقل لم يحسن اوانه بعد ، إذ يقصد به تحديد مراحل تطور الشاعر وفنه ، ومن السابق لاوانه بالنسبة لشاعرنا أن يتحمل الآن هذه الموازنة فهو في بداية رحلته الفنية الفنية تهديه موهبته وثقافته الى ما يقول ، ومن الظلم ان يقال له الآن (لقد قلت من قبل ولم تقل من بعد) او العكس ، فما زالت (بعد) بالنسبة له طليقة مملوءة بالضوء .. والآمال .. والوعود .

انما الذي أنوي ان اقدمه هو حصيلة قراءة يقظة متأنية للديوان ثم معاودة للقراءة ايضا بنفس اليقظة والثاني، مع تنحية الافكار المسبقة والنظريات والمذاهب التي تلون هذه القراءة فتوجهها احيانا الى غير ما قصده الشاعر ، حتى اتيح لي ان اتودد الى شعر الشاعر وان اخالطه ثم اعاشه واتعرف عليه ، ثم تحدثت عما عرفت في هذا المقال .

وتتناول هذه الدراسة امورا اربعة هي على التوالي : دور العبارات الجاهزة - الحكم والامثال - في الديوان - ومظاهر الانطواء والياس والخوف في بعض القصائد ثم قضايا الشعب وبخاصة حرته الفردية والاجتماعية التي عبرت عنها اروع قصائد الديوان واخيرا لغة الديوان واسلوبه ووزنه العروض .

- ٢ -

هناك بعض التجارب التي يشابه في ممارستها الناس والاشياء، فاذا قدر لاحد الواعين ان يلاحظ تلك المشابهة صاغها في عبارة

واحدة تستخدم كلما جدت ظروف مشابهة حيث تشيع بين الناس فيتناقلونها معجبين بها محتفين ، وربما نسييت ظروفها ومن قالها وربما لا تنطبق بطريقة حاسمة على كل شيء مشابه ، لكنها مع ذلك تبقى شائعة بين الناس تتناقلها الالسنه ، وتستخدم في كثير من المواقف والظروف ، وقد اطلق على هذه العبارات في تراننا القديم اسم « الحكم » وما يزال بعض الابداء في عصرنا يؤلف ما يقرب من الامثال والحكم ليذيل بذلك فكرة قصيرة او مقالا صحفيا ، ومن ذلك ما جمعه اخيرا الاستاذ « انيس منصور » في كتاب بعنوان : (قالوا) ، وهذا ما اخترت له في الحديث هنا اسم «العبارات الجاهزة» .

وفي « حديث الشتاء » تتناثر العبارات التي تعبر عنها احيانا مقاطع كاملة تكون هي الهدف من القصيدة كلها ، وقد يصرح بذلك العبارات بالفاظها وقد لا يصرح بها ولكن لا يخطئها التأمل اليسير لبعض القصائد ، فلنقدم اولا نماذج لتلك الطريقة في الديوان ، ليستبين لنا الرأي فيها بعد ذلك .

في قصيدة (آخر ازهار الموسم ص ١١) لقاء حدث مصادفة بين اثنين كان لهما ود قديم ، حيث دارت بينهما احاديث الود الاولى ، وفاضت بهما اللهفة والاحلام لكن ذلك كله فشل فسي ابتعنت حرارة العاطفة المتبردة ، حيث غمرها شبح الهجر الاسود والشقاء المظلم ، يقول :

وتوقفنا

كما مشدودين الى ظلينا

تمجز فينا الرغبة والاشواق

لا يخطو الواحد نحو الآخر

كل يعشق نفسه

لا يهب اخاه

أكثر مما يعطيه

فالقصيده كلها تهدف الى هذا المقطع بالذات ، ومضمون هذا المقطع ان الود الصادق تدمره « الانانية والحرص » فكل يعشق نفسه ولا يعطي الا مقدار ما يأخذ وهذا المعنى تلخصه العبارة الشائعة التي تقول (الاناني من يحب نفسه ، ولا يعطي الا قدر ما يأخذ) .

وقريب من ذلك ما جاء في قصيدة اخرى بعنوان (غزاة مدينتنا ص ٢٨) حيث جاء فيها نصا عبارة اخرى شائعة عن الانانية هي (انا ومن بعدي الطوفان) وهي عبارة مشهورة استخدمت في القصيدة للدلالة على أحد اسباب التخاؤل والفشل الذي يؤدي بالشعب الى المضعف والخضوع للغزاة - يقول :

حين اجنبا الفرقى بالصحكات
حين جلسنا نصخب في اعراس الجن
حين اجاب الواحد منا
ما دمت بخير
فليفرق هذا العالم طوفان

فاليبتان الاخيران هما نفس العبارة المشهورة التي تدل على الانانية والحرص على المصلحة الشخصية لولا ضرورة الوزن التي تجت الشعاع الى زيادة بعض الكلمات او تغييرها والاييات قبلها تحتوي على نفس المعنى ، والمقطع كله هو هدف القصيدة كلها التي اظن - ان لم يجانبني الصواب - ان الشاعر قالها بعد ان تشق تلك العبارة ومعناها .

في قصيدة (حتى يطلع قمر الحب ص ١٤) فدم لها بعبارة « بيرون » (ان هذا العالم شيء تافه ان اكتسب او فقد) ثم جاءت القصيدة كلها تحت عناوين ثلاثة هي على التوالي (موسيقى الاشياء - الحكمة المهزومة - ليس صحيحا يا بيرون) وقد جاءت القصيدة كلها لتعبر عن عبارات ثلاث شائعة ، اظن انها - او قريبا منها - جالت في نفس الشاعر قبل ان ينظم قصيدته .

يقول في نهاية المقطع الاول :

في جوف الاشياء

موسيقى لا ندرتها الا الروح

وهذا معنى العبارة المشهورة (الاشياء بما نحسه نحوها لا بما نراه فيها) .

ويقول في نهاية المقطع الثاني :

والعالم لا يحفل ابدا بالحكمة

القوة تحكم هذا العالم

وهذا المعنى نتيجة التأمل في العبارة المشهورة (الحق فوق القوة)

ثم معارضتها بعكسها .

ويقول في نهاية المقطع الاخير :

لكن ليس صحيحا يا بيرون

ان العالم شيء تافه

وبه هذا الالم الفادح

فقد عارض كلام « بيرون » بمعنى عبارة اخرى مشهورة هي (لا حياة بلا ألم) ومن البين بعد هذا العرض الموجز للقصيدة انها قامت أصلا في ذهن الشاعر حول عبارات جاهزة مشهورة فقدمها شعرا في قصيدة طويلة استغرقت ثماني صفحات من الديوان .

وهي قصيدة (مرثية القلب الميت ص ٢٣) تعبير عن صراع مؤسف لقلب تملق بالاوهام والامنيات الحلوة حيث لا تدبل الاشجار ولا تبطىء الانهار ولا تسقط من الليل الاقمار ولا يكذب الحب او ينتهي ، لكن الواقع لا يتفق مع تلك الاحلام ، فكانت نتيجة الصراع حتمية وهي الهزيمة المرة لها والانسحاق تحت وطأة هذا الواقع ، فعاد القلب اغنية مخنوقة والما صامتا ، بل ميتا يرثى وقبرا لكل تلك الاحزان القاتلة .

وفي تلك القصيدة المهومة جاءت تلك الاييات :

كنت بريئا لا تدري ان الايام

لا تترك من يصعد

تملئ يداه بضوء النجم

لا تترك نهرا يجري متجها نحو مصبه

لا تترك حبا يختبئ سميذا في مقلة عاشق

وكما قالوا : لا يبقى الراكب فوق جواده .

وبيت القصيد هو البيت الاخير ، حيث يعبر عن الحكمة الشعبية (الدنيا ما تخلي الراكب ركب ولا الماشي ماشي) واحتوت تلك الاييات أيضا حكمة اخرى بنفس المعنى هي (أسهل ان تصعد القمة لكن مسن الصعب ان تبقى هناك) واطن الشاعر قد اعجب بهذا المعنى ، فتمثله ثم غناه بتلك القصيدة التي تعبر عن المرارة والالم والضياع .

ويكفي هذه النماذج السابقة للدلالة على مدى استجابة الشاعر

لما يعجبه من عبارات جاهزة وان كان هناك غيرها ايضا ، فقصيدة (اسطورة ص ٥٦) تعبر عن حكمة معناها (حين نصل لما نريد يفر مسن بين ايدينا) وقصيدة (مأساة بطل تراجيدي ص ١٠٠) تعبر عن فكرة شائعة اظنها (اما ان آخذ دوري الحقيقي واما ان ادمر كل شيء) .

لكن .. ماذا في استخدام هذه الطريقة في الشعر ؟؟

ان بعض الشعراء الجدد - ومنهم ابو سنة - تشجع بينهم فكيرة ارتباط الشعر بالناس .. بالجمهور .. بالشعب ، ويترب على هذا الفهم ان يحاولوا استخدام العبارات الشائعة على السنة الناس او معانيها لتكون موضوعا لقصيدة كاملة او لمقطع من مقاطعها بقصد التعبير عن افكار الناس والتودد اليهم .

وفي هذا بعض الحق ، ولكن المآخذ التي توجه لهذه الطريقة قد تؤدي الى العكس تماما ، فتبعد الشاعر عن فنه وعن جمهوره جميعا ، لان الشاعر اذا بدا بعبارة جاهزة ، فقد صادر نفسه ، اذ دور حول فكرتها المسلمة ليصوغها شعرا ، ويبتعد - دون ان يدري - عن المشاكل الحقيقية الحية لدى جمهور الناس ، ويدفعه ذلك بالطبع الى التجزؤ في صياغة الفكرة ، ما دام قد ازم نفسه بصياغة المعنى المجرد السذي حملته العبارة ، بل يدفعه في كثير من الاحيان الى افتعال تجربة ذهنية «مفصلة» على مفاص العبارة ، وكل ذلك يبعد به عن الصدق والارتباط بأمال الناس والامهم ، والتأثير فيهم .

فاذا اضفنا لذلك ان العبارات الجاهزة التي لبست نوب الشعر في الديوان موضع الدرس كان معظمها مما يتردد على السنة خواص المثقفين - كما هو واضح في النماذج السابقة - ازدادت المسافة اتساعا بين ما قصده الشاعر وما أدى اليه قصده ، وكانت حصيلة ذلك كله خسارة اكيدة للجهد وللفن وللناس جميعا .

- ٣ -

النفمة الاسيانية ، والحزن الرقيق او الفليظ ، والانطواء على النفس والاكتئاب ، والاحلام المجنحة ، والنشيج الهامس او الصاخب ، والياس الذي قد يصل الى حد القنوط ، والحديث عن الموت والضياع والاشجان ، ورؤية الاشياء مقلبة بالضياب والسحاب والدمسوع واستعذاب القلق والالام ، وتوقع الكوارث والفشل - كل ذلك من هموم المراهقة في حياة الناس - كل الناس - وهي من هموم جيلنا بوجه خاص ، ووراء ذلك طبيعة المرحلة التي يمر بها المراهق ، وما يصحبها من تغير وتطور في الجسم والنفس جميعا ، ومن تصور وردي للمثمل والاحلام ، تلك التي تصطم في بلادنا بالواقع الخشن ، والصراع المر بين افراد المجتمع بحثا عن اللقمة والنجاة والامن ، في ظل ظروف طبيعية بشعة ونفاق اجتماعي مخيف ، وبهلوانيات سياسية بفسادها التزييف والتزهيق واستنزاف نخوة الامة وحيويتها حتى النخاع .

لذلك فانه ليس من الغريب ان يستجيب المرء في بواكير الشباب لاحزان جيله ، وان يضيف لذلك من التهاويل ما يصوره لسه خياله واوهامه ، فياسى دون اسى ويكتئب دون كآبة ، ويتباكى دون بكاء ، وكل ذلك يبقى مقبولا ما دام في اطار مرحلته ، مرحلة الفجاجة والمراهقة والاحلام ، فاذا جاوز هذه المرحلة الى النضج والفهم ، انحسر ذلك الضباب تحت سطوة الواقع بمرارته وبشاعته وزيفة فيتعرف طريقه في زحام الحياة ، ويجادل اسباب ارهاقه وارهاق مجتمعه محاولا التفسير ما استطاع وما استطاعت ظروفه ، فان ظل تحت تأثير الكتابة والضياع والاوهام ، فنلك ردة مدمرة واسلوب صبياني ردى .

وديوان (حديقة الشتاء) ديوان ناضج اصيل بصفة عامة ، يحل به صاحبه مكانه في الطليعة الواعية الملتزمة ، وقد خلا مسن تهاويل المراهقة والاحلام لولا بقايا متناثرة فيه ترفع رأسها مرة هنا ومرة هناك ، ويرتفع نشيجها احيانا الى حد الصراخ ، وبرز ما يدل على ذلك في الديوان القصيدة التي حمل الديوان كله عنوانها (حديقة الشتاء) وقصيدة اخرى بعنوان (مرثية القلب الميت) .

وهو يلج بصفة خاصة على ائمن فضايا الشعب وهي « الحرية »
ولكن اي حرية !! الحرية في مختلف اشكالها وصورها ، الحرية مسن
الغزاة ومن القهر والظلم ومن اسار ضعفنا وانانيتنا وكذبنا ونفاقنا ،
فالحرية التي يقف « ابو سنة » في صفها هي حرية الشعب كله ، وهي
حرية تبدو في كثير من القصائد متهورة مصلوبة بل مقلودة ، وهو يقف
مع صاحب الحق فيها - الشعب - فيلوح بيده مهددا الطفلة الذين
اقاموا (الخوف حارس السلطان) مينا عاقبة الظلم ومداه ، وهو ايضا
يتجول بين اولئك الذين سلبت منهم ، فيكشف عارهم وضعفهم
وفجهم ، وكانما يقول لهم : انتم لا تستحقون الشفقة ، بل الاحترار ،
فالانسان بلا حرية خائف ، مهزوم ، موات ، وهو بالحرية شجاع ،
متنصر ، حي .

ومن ابرز قصائد الديوان التي يتجول فيها الشاعر بين الشعب
وحرية (غزاة مدينتنا - الصرخة والخوف - عنكبوت اللحظة السوداء
- حلم ملكي - المبارزة - المحاكمة - لا - اسطورة بطل تراجيدي) .
فلنقرأ قصيدة واحدة قصيرة هي (المحاكمة) نقول :

يا سادتي
قد فنى ماتم العزاء
فالبيت الذي دفنتوه
قد قام يطلب المحاكمة
ذو المعطف السميك
يقول : انه القضاء والقدر
وبائع الخمر قال : انها الحظوظ والمصادفة
وقارئ الكتب
يقول : لم ترد حكايته
وقال ماسح الحذاء
قد كنت غائبا
ونظرتي قصيرة ولا تجاوز الجدار
لم يكشف الستار مرة لكي أرى
لم يكشف الستار
وقال زارع الحقول
الله يبعث البلاء
لكي يطهر العباد
من آفة الفساد
وقال آخرون : انها جريمته
تاريخه القيام والوقوع
وظل طول عمره لا يرفض الخضوع
الخوف قد اذله والجوع

يا سادتي
ما رأيكم في الميت الذي دفنتوه
تحاولون ان تنسوه
يقول : انكم جميعكم خدعتموه

فهذه محاكمة من نوع غريب ، ينصب سوقها ميت مظلوم ، يقوم
من جده بعد ان مات وشبع موتا وانفض العزاء عين ماته ، حينئذ
ينصب شعبه امام ظالمه الذين تقبلوا العزاء في مائة ويطلب بتحديد
المسؤولية والادانة ، فيبحث كل منهم عن تلة كاذبة يحيل عليها مسؤولية
ظلمه ، ولكنه ياخذ بخناقهم جميعا ، ويضعهم في قفص الاتهام بعد ان
وصمهم بالكذب والضعف والخداع .

والميت في هذه القصيدة ربما كان رمزا لحيوية الشعب وايجابيته
كلها التي ضمرت ثم جفت وربما كان رمزا لحرية ونخوته التي تخدرت
ثم استنزفت ، وربما كان رمزا لغير هذا وذلك من قيم الشعب وحيوانته ،
و!ولئك الذين جلسوا في ماته هم انفسهم الذين اودوا به ، انهم فئات
الشعب كله ، الراسماليون والتجار والمثقفون وانباء البلاد والفلاحون
والعجيب ان كلامهم يحاول ابعاد التهمة عن نفسه ، ليتحملها عنه القدر

فالقصيد الاولى - على سبيل المثال - تصور باسى كثيرا مسن
المشاهد الخرساء - الجذور التي تناوه ، الجديلة التي تتخاصم عليها
الرياح ، والمعمدون الضائعون ، حتى ظلمهم قد ضاع ايضا على الحوائط
السوداء ، والذكريات الكثيرة ، والبذور الحزينة ، والنظرات الحسيرة ،
والسروة الذابلة ، والاحلام المبقورة .

ومع تكديس هذه المشاهد الكثيرة فانها تتطلع الى الربيع الياسم
المشمس ليمسح عنها الآلام والاحزان ، لكن هذا التطلع - حتى مجرد
التطلع - يموت في نهاية القصيدة :

لكننا هناك مغمدون ضاع ظلنا
على الحوائط الكئيبة السوداء
قد نشدنا الالوان والضيء
لكننا وفي انتظار من مضوا
نظل قابعين عاجزين في حديقة الشتاء

وقد كان من الممكن ان تنتهي القصيدة قبل هذا المقطع الاخير بعد
ان قدمت تبريرا لكل تلك الاحزان بانتظار من مضوا من الامل والرفاق ،
وانتطلع الى الربيع وعطائه الوافر من الجمال والسلام ، والتودد اليه
بالخجل والمعذرة فرارا من اللوم والتائب لكن القصيدة استسلمت مرة
اخرى لروح الكآبة والعجز التي سيطرت عليها منذ البداية ففطسي
نتيجها الاخير على التبرير والرجاء والمعذرة دون مقتضى فني ذي قيمة .

وهنا ينبغي فهم احساس (الخوف) الذي يواجهنا اكثر من مرة
في قصائد الديوان ، فهناك فرق بين الحديث عن الخوف كاحساس
فردى فان غائم الاسباب ، وبين الحديث عن الخوف كاحساس اجتماعي
ممتد نتيجة ظروف متخلفة كالقمع والقهر والتمزق بين المظهر والحقيقة ،
وغلبة الفوضى والجهال والسفهاء بالتحكم فسي قسم الناس بالظلم
والجبروت « حينئذ يوجد الخوف ، وهو خوف معروف الاسباب
والظروف والحديث عنه شجاعة والتزام ، وهذا النوع الاخير هو الذي
جاء في الديوان :

حين كذبنا خفنا
وفرحنا بهدايانا من سوق الزيف
هذا قدر الكذابين
الخوف .. الخوف

والكذب هنا كذب السلوك والكلام والقيم والناس ، والاشياء ،
حتى الاشياء كاذبة !!

جوقة مظهرية مهيبة باطشة خلفها يعيش الخوف الاجتماعي
الدمر .

— { —

لا ادري لم فضل الشاعر ان يسمي ديوانه (حديقة الشتاء) وكان
الاولى ان يسميه (حديقة الشعب) فان ازوع ما في هذه الحديقة من
اشجار وثمار وازهار انما هو للشعب ومن اجل الشعب .

ان هذا الديوان يعد وثيقة ادانة حقيقية لشعبنا وجيلنا ، فهو
شعب مظلوم متهور ، ولكنه هو الذي ظلم نفسه ، انه هو الذي نسج
الظلام بيده ، وهو الذي بنى حوائط سجنه وقضبانه ، ثم سجن حياته
وحرية فيه ، وزاد فاقام من نفسه سجانيا يراقب القضبان ويجلس
الحرية .

ان الشاعر ينتقل بنا من موقع لموقع آخر ، ويطل معنا في كل موقع
على العدو الرهيب الذي يغتال امننا وحريةنا ، ويستنزف حيويةنا ، ثم
يشير ويلوح ويضرب الارض برأسه وقدميه ويلسوق صوته بالهمس او
بالصراخ ، وبالافهام او بالوعيد ، وبالكلام الهادئ او بالنشيج المخوق
باللفظة والصورة والمشهد الكامل ، كل ذلك ليضع ايدينا على جراحتنا
التي تنزف ، ويطلعنا على سر الماساة التي قادت جيلنا للضياع والهزيمة ،
ونحيت منه لباوب وجوده لتتركه خاويا شاحبا تتخطفه الانواء والاعاصير
.. اضعف الاعاصير .

الواحد ، دون ان تبني شيئا جديدا او تنمية في القصيدة انها اشبه
« بالترادفات اللفظية » وان كانت صورا شعرية ، وهي دليل على
البراعة اللفوية لا اكثر - وفي الديوان حشد هائل من هذه الصور ،
ولنتأمل هذه الابيات :

وتساءلنا

أي غزاة جاءوا في منتصف الليل
رجعوا بالأشجار بعيدا عن مجرى النهر
هدموا أعمدة الضوء

رحلوا بالأزهار الى مقبرة وحشية
وضعوا سيفا بين سفاه تدنو من عنقود القبلات
داسوا بالخليل جبين المعبد
طردوا منه الصلوات
صرخوا في وجه الفجر

فبعد البيتين الأولين تكسبت سبع صور تدل على (الدمار
والخراب للمدينة) لكن كل تلك الصور لم تقدم نوا لتجربة القصيدة
او بنائها ، فبقيت الفكرة واحدة تدور في اطار لفوي فقط .

كما ترتب على الافكار التجريدية ايضا ان لجأ الشاعر احيانا الى
لهجة خطابية « عنترية » لا تتفق مع طبيعة الشعر الجديد الذي يسري
الى الروح في رفق ، وينساب ساكنا كالضوء بمسند ان تخلص - كما
قالوا - من ضجة الأوزان والقوافي في الشعر القديم ، ومن علو الصوت
لللقاء في المحافل والجموع ، فمن لوازم الخطابة الانفصال والصخب
واستخدام أدوات التوكيد والامر والنهي بصورة اليقين والحسم
والزجر ، والتجربة الشعرية الجادة الرصينة لا حاجة بها الى تلك
اللهجة التي انزلت اليها احيانا بعض مقطوعات من قصائد الديوان ،
فلنتأمل هذا المقطع في نهاية قصيدة (الجثة الحمراء ص ٩٤) :

فلتخرج الرياح من مفارة الدخان

او الحظ او الجهل او الابتلاء او استحقاق الجزاء للضعف والخنوع ،
ولكن الامر في حقيقته غير ذلك كله ، ان هؤلاء الذين يعمدون التهمة عن
انفسهم ليقتفوا بها هنا وهناك هم وحدهم المدانون المذلون المهانون
بضعفهم وكذبهم وانانيتهم ، تدينهم القيم المهذرة والحرية المضاعة ،
وهي قيمهم وحريرتهم ، وما ظلمهم احد ، ولكنهم ظلموا انفسهم .

لكن ينبغي ان يفسر هنا الاسلوب الفني الذي لجأ اليه الشاعر في
عرض ذلك المضمون الناصح في قصائده الوطنية ، فاهم ما يميز هذه
القصائد عموما اليفتان التاليتان :

١ - التجريد الذهني حتى فيما لجأ اليه من رمز .

٢ - تكديس الصور اللفوية واللجوء احيانا الى اللهجة الخطابية .

ان شاعرنا يتصور موضوع القصيدة كفكرة تجريدية ، فيرتبها
ذهنيا ثم يلبسها ثوب الشعر اذ يتعلق بالمعنى المجرد ، ثم يفنيه شعرا ،
تماما كما لو كان المرء امام فكرة عقلية يريد شرحها لقارئه او سامعه ،
وكل الفرق بين الطريقتين هو في استخدام الصورة في الشعر والكلام
الموضوعي المساوي في نقل الفكرة نشرا ، « فابو سنة » يتمشق افكارا
مجردة عن حياة الشعب وسلوكه واخلاقه ، لكنه لا يقدم في شعره
صورا من حياة الشعب النابضة الفنية ، فينقلها حية متحركة مؤثرة ،
فتدل على ما يريد دون ان يقوله هو ، ولذلك كانت معظم قصائده
الوطنية تاملًا عاما لا نماذج حية ، وتجريدا لا حركة ، وفكرة عقلية تفهم
لا صورة نابضة تنمو ، وبعد ان يشرح فكرته بالشعر يصبح في آخرها
بصوت جهير مصرحا بهدفه منها .

فقصيدة (الفدائي ص ٧٤) ليست صورة بطل في مقامرة يتسلل
ويغافل ويهجم بما يصحب ذلك من مخاطرة ورعب ومفاجآت واستشهاده ،
بل هي حديث عن « معاني الفداء » على لسانه - او بالاصح على لسان
الشاعر - فيقول : انه امتلك مصيره بشجاعته ، وان للمغامرة والخطر
لذة اي لذة ، وحين يموت سيحتفي به الاسلاف الذين استشهدوا قبله ،
ليختم القصيدة بصيحة الفدائي بهدف القصيدة :

لا تشفقوا عليّ

فها انا الذي خسرت قد كسبت كل شيء

وفي قصيدة اخرى بعنوان (لا : ص ٩٧) تعرض فكرة مؤداها : ان
الراي الحر عنوان الشموخ وان الاستسلام دليل الخنوع ، وتجلد بقسوة
خسة الاحساس الأخير - الاستسلام - وتسمه بأنه ذلة سببها خوفا ،
وانه يؤدي لاستئلاء الآخرين على حسابنا وجناية على الاجيال بعدنا ،
لنتنتهي القصيدة بهدفها في :

الا اذا رفتم الجباه في طريقهم

السيف في وجوههم

وان نقول في شجاعة المقاتلين : لا

فالذي يتحدث هنا هو الشاعر نفسه بطريقة تجريدية يعبر بها عن
فكرته ، وكان من الممكن مثلا ان يقدم صورة حية من صور الشموخ من
اولئك المعذبين من شعبنا الذين يتحملون في جلد الامم ، ويصقون في
وجوه جلاذيتهم ، فنحس ساعة سقوطهم وموتهم انهم في قمة الانتصار ،
وانهم اعظم قدرا ممن اضطهروهم .

وحتى عندما لجأ شاعرنا الى الرمز - وهو في قصائد قليلة -
استخدم ايضا رموزا من صنعه ، ثم رتبها ذهنيا لنقول ما يريد ،
كقصيدة (الحاكم) التي مر ذكرها وايضا آخر قصائد الديوان (ماساة
بطل تراجيدي) ، فلم يختر مثلا رموزا من التاريخ او الاساطير الدينية
او الشعبية لتشف برفضها شعرا على ما يريد الشاعر دون ان يصرح به .

وخلاصة هذه الفكرة كلها ان قصائد الشاعر الوطنية - في
معظمها - تشرح افكارا تجريدية بطريقة مفروضة من الخارج - من
الشاعر - دون ان تدل بنفسها على المقصود عن طريق الشفافية والايحاء .
وقد ترتب على ذلك - وبسببه - ان لجأ الشاعر كثيرا الى حشد
الصور اللفوية - التي قد تصل احيانا الى عشرة ابيات - حول المعنى

كتب جديدة صدرت عن

دار العودة - بيروت

عيون الكلاب الميتة (شعر) عبد الوهاب البياتي
كتابة على ضوء بندقية (شعر) محمود درويش
طلب انتساب للحزب (شعر) سميح القاسم
قراقش (مسرحية شعرية) سميح القاسم
احزان افريقيا (مسرحية شعرية) محمد الفيتوري
معزوفة لدرويش متجول (شعر) محمد الفيتوري
الادب والادب الشعبي الفلسطيني (دراسة)
توفيق زياد

نداء الجراح (شعر)

حنا ابو حنا (رائد شعر

المقاومة) في الارض المحتلة

الشارع الاصفر (قصص من الارض المحتلة)

توفيق فياض

اغنية الى يافا (شعر) سيد احمد الجردلو

موسم الهجرة للشمال (رواية) الطيب صالح

عرس الزين (رواية) - الطيب صالح - الطبعة الثالثة

تطلب من دار العودة : شارع مار منصور - عمارة

بنك بيروت والبلاد العربية - تلفسون : ٢٣٦٤٠٧

حبر أمي والسفر

صوتك الدافئ يخضرّ على ارضفة المنفى ،
وفي غابات أحزاني يحبو
كلما القيت مرساتي بميناء اغتراب
شدّتي للوطن النائم
في قلبي جرحا
وطني المزروع

في اقبية التاريخ ومحا
دونه القرية تمتد على صمت خطاي
- لاهثا - أعبّر جسر العالم المنهار ، أجتو
في انتظار القمر المصوب - خفاشا -
على بوابة الليل ،
ادقّ الحجر النابت
في وجهي جدار
ويرنّ الصوت
يرتدّ الصدى :

« بابل شاخت »
بابل في معصم الريح سوار:
وخضاب دمها
بيع بأعراس التتار
فلمن توقد في صومعة الذكر
شموع النذر
تجتّرّ انتظاراتك في قاع المغار ؟
لدمي النائم في عروة صدر الارض
حناء لأعراس التراب

لدمي كل إنتظاراتي ،
شموعي ،
أبجدياتي الكئيبة
لدمي اهتف باسم الجرح
في أروقة الصمت - وصوتي
مطر يلهب أعناق السحاب -
حاملا جمجمتي في طرق العمر حقيبته
ملؤها كل متاعي :

وجهها المطلي (بالنابالم)
وجهي المستباح
وجه أمي :
دامع العينين ،
مصلوبا على كف الرياح

عبد الخالق الركابي

بغداد

وليقبل الفرسان
لا تركبوا الخيول ان تناسلت من الكلاب
ولا تعلقوا تمويذة الجبان
على جبّين هذه المدينة الكثيرة الاعداء
ولتخرج الفربان من نوافذ القلوب
لتصدح الطيور بالفناء
فلتخبروا الاطفال والنساء
بالكف عن اذاعة الرناء

فقد نصب الشاعر مهرجانا للشهيد ، ووقف يخطب في هذا
المهرجان آمرا وناهيا وزاجرا وداعيا للغارات والفرسان والخيول
والفربان والطيور والاطفال والنساء ، مع ان تجربة « الشهادة » لو
جاءت في مشهد مواطن عادي يموت في موقف الحفاظ على الارض او
المبدأ او الحرية ميّنة عادية مؤثرة ، لعمتت فسي نفوسنا اعتزازا به
وباستشهاده اقوى كثيرا من هذه الطريقة الخطابية الزائعة .

- ٥ -

من أفدح الاخطار التي تهدد الشعر الجديد اليوم ما يعود السى
اللغة والوزن ، فبعض من يحترفون هذا الشكل الجديد مجهلون هذين
الامرئين جهلا شاننا ، فيخرجون على ما يطلق عليه « منطق اللغة »
ويقصد به صحة مبنى الالفاظ ومعانيها ، فيستخدمون اشتقاقا غريبة ،
حروفها عربية وصورتها لا هي عربية ولا اجنبية ، او يستخدمون الكلمات
العربية بمعان بعيدة كل البعد عن مفهومها الحقيقي ، او يستخدمون
جملا كاملة معناها في « بطن الشاعر » فقط لاختلال التركيب والاعراب
فيها ، او يستخدمون عبارات كاملة « تولىفة » مفهومها غامض غموضا
يصل الى حد الاحالة تحت اسم الصور او الرمز او ما شئت من
الافتراءات ، ناهيك بمن يخرجون عن الوزن العروضي تماما ، او يخلطون
بين التفاعيل بطريقة صيبانية رديئة يضج منها الخليل ونازك وكل علماء
العروض في القديم والحديث .

ما علينا . . فلهذا حديث آخر ، والمهم هنسا ان ديوان (حديقة
السناء) يكاد يخلو من تلك الصيوب تماما ، فهو يستخدم الالفاظ بطريقة
سليمة واضحة ، وهو يبني جملة خالية من الاضطرابات والخطا ،
وصورة محكمة متماسكة لا غموض فيها ولا احالة الا ما ندر ، ومن هذا
النادر ص ٢٩ :

هل كان القمر صديقا للاشباح
من اوقف زحف البوردة نحو النجم

فالصورة في البيت الاول غامضة ، وفي الثاني بعيدة عن التصور
ص ٣٢ (عن الحرية) :

حطت صرختك الوردية
فوق ملايين الاشجار

فإصرخة هنا صرخة الحرية الذبيحة ، فهي صرخة الرعب او الالم ،
لكنها غير « وردية » على كل حال .
ص ٩٨ :

لاننا نضم في صدورنا
عزائما في رقة البخار

فهو يقصد بذلك « عزائم خائرة منهوكة » والبخار ليس كذلك ،
فهو قوي جدا ، قوة تسيّر بها القطارات والسفن والطائرات ، فليت لنا
مثل هذه العزائم يا صديقي !!
وبعد

فلعني قد استنظمت ان افهم ما قرأت ، وان افسر ما فهمت ، وان
اقدم لقاريء هذا الديوان من بعدي ما يهديه بين مروجه وادغاله .

محمد عيسد

القاهرة